مضامين الجمال والمسؤولية في البعد البيئي الإسلامي

الدكتور زهرة كحلح
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ـ قسنطينة

حينما أرادت حكمة الباري عز وجل أن يجعل من هذا الكون الفسيح، مجال الإعمار والتعبد من طرف الإنسان الخليفة، الذي خُص في أصل خلقته بالعقل[1]، والإرادة في وسطية جامعة بين الجانب المادي، والروحية الملكية المجردة من المادة والمستغرقة للجانب المريد الخير، وهذا المعنى الجامع في الإنسان بين المادية والروحية، كان من أهم لوازمه الوعي والإرادة المهيئة للاختيار بين أوجه ومستويات القرارات الناجمة عن ذلك الفعل أو الاختيار[2].

وداخل دائرة هذا الاختيار يقع طبعا وعيه بمسؤولياته والتزاماته، اتجاه نوعه البشري أولا واتجاه سائر الموجودات ثانيا، بما فيها محيطه الذي يعيش فيه ويحيط به إحاطة مشاركة وانفعال واستجابة، هذا من جهة ومن جهة ثانية نجد القرآن الكريم قد سعى دوما إلى إبراز ذاك الترابط بين الإنسان والكون، سواء على مستوى الفكر والاعتبار والنظر في آيات الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

---

1) يقول الراغب الأصفهاني: "لما كان الإنسان إنما يصير إنسانا بالفعل بالعقل، ولو توهمنا العقل مرتفعا عنه لخرج عن كونه إنسانا...". الراغب الأصفهاني: تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، (دط)، مكتبة الحياة: بيروت– لبنان، 1983، ص 79.

2) عبد المجيد النجار: مبدأ الإنسان، (ط1)، دار الزيتونة: الرباط– المغرب، 1996م، ص 44.

لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾[1].

وهذا يعني أن آلية التدبر تعد كلازمة فكرية، تربط بين الحضور الحسي والذهني، وبين دلالات الكون على قدرة الخالق واستحقاقه للعبادة.

أما المستوى الثاني فهو ينصرف إلى مسؤوليات الإنسان والتزاماته الدينية والأخلاقية، اتجاه كونه ومحيطه، بالشكل الذي تمليه عليه ماهيته المرهونة بقوة الإدراك والإرادة الحرة ليتم تحققها فعليا، والانتقال بتلك الماهية من القوة إلى الفعل أو التحقق الفعلي المشروط بشهادة التوحيد الكامنة فيه[2]، وهذا يعني أن مناط هذه المسؤولية أي مسؤولية الإنسان تجاه نفسه وغيره، هو الإرادة الحرة المستندة إلى توحيد الخالق، بتدبر آياته تعالى في الكون مع ضرورة مقاومته معوقات الفعل المسؤول؛ لأنها عين ما يفسد على الإنسان مسؤوليته اتجاه كونه وبيئته، وهذا ما نستطيع القول عنه أنه يمثل التربية البيئية، وهي العملية التي تعبر عن إعداد الإنسان للتفاعل مع البيئة الطبيعية[3] بما تشمله من موارد مختلفة، وتهدف إلى معايشة الإنسان للمشكلات البيئية واكتساب القيم والفعاليات، بقصد حماية البيئة وتحسينها، ليتمكن بذلك من إقامة علاقة أكثر تآلفا مع

---

1) آل عمران: 190-191.

2) مبدأ الإنسان: مرجع سابق، ص 45.

3) البيئة (Environnement) لغة هي المنزلة والحالة وتطلق في الاصطلاح على الأشياء والظواهر المحيطة بالفرد والمؤثرة فيه، وتحمل على مجالات كثيرة فهناك البيئة الاقتصادية، والسياسية، والفيزيقية، والاجتماعية، والصحية، والطبيعية.جميل صليبا: المعجم الفلسفي، (دط)، الشركة العالمية: بيروت- لبنان، 1994م، (220/1-221). وانظر: عبد الرحمن محمد العيسوي: دراسات نفسية حديثة وعاصرة في البيئة والصناعة والمهن والأعمال، (دط)، دار المعارف: القاهرة- مصر، 1995م، ص 30.

بيئته، هذه العلاقة التي تناولتها النظريات الفلسفية فاختلفت بشأنها وفق الوجهات الآتية:

I- **الحتمية البيئية**[1]: وهو الموقف المؤكد على سلبية الكائن البشري، إزاء قوى الطبيعة باعتبار أن البيئة المادية قوة ذات تأثير حتمي في الكائنات الحية.

II- **الحتمية الحضارية**: ومضامين هذه النظرية تحيل البيئة إلى مجرد عامل محدود وليس عاملا حتميا، وبهذا فهي ترفض نظرية الحتمية البيئية باعتبار القدرات النفسية والعقلية للإنسان والتي مكنته من إنشاء حضارات مادية وغير مادية، حيث ركزت هذه النظرية على جانب التفوق البشري في تطويع بيئته وإنشاء حضاراته، بغض النظر عن طبيعة المبادئ والقيم التي تحكم تلك الإنجازات والحضارات، وهذه النظرية وإن كانت تحوي أحد وجوه الحكمة من خلق الإنسان، وعمارة الأرض كما ورد في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝﴾[2]، إلا أنها تفتقر للحكمة الجامعة من خلق الإنسان والتي تندرج فيها سائر وجوه الحكمة، وهي عبادة الله[3]: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾[4]، وعبادة الله عز وجل تعني الخضوع لله والإنابة إليه بإظهار عظمته وطاعته، وما من شك في أن من مقتضيات العبادة: العمل الصالح المسؤول، الذي يُفعل مضامين الخلافة وفق مبدأ الجزاء

---

1) الحتمية (Déterminisme) بالمعنى الفلسفي مذهب يرى أن جميع حوادث العالم وخاصة أفعال الإنسان مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا محكما...وأصحاب هذا المذهب يرون أن لهذا العالم نظاما كليا دائما لا يشذ عنه في الزمان والمكان شيء. المعجم الفلسفي: مرجع سابق، (1/442-444).

2) هود: 61.

3) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: مرجع سابق، ص 48.

4) الذاريات: 56.

الأخروي بحكم قاعدة الابتلاء والاختبار: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

III- **التأثير المتبادل:** وأصحاب هذه النظرية يؤكدون على التأثير المتبادل بين الكائن الحي والبيئة، فالكائن الحي لا يتأثر بكل ما يحيط به من ظواهر كالطاقة والحرارة فقط بل إن البيئة ذاتها تتأثر بالنشاط الإنساني من حيث المردودات الزراعية مثلا والمنشآت والموارد...[2].

أما عن موقف العقيدة الإسلامية من علاقة الكائن البشري ببيئته وكونه ككل، فإننا نجد القرآن الكريم قد حدد منهاجا فريدا للتربية البيئية، ضمن أطر جمالية تسمو بالذوق العام، وتنأى به عن كل ما يشين لمسات الجمال التي ينطق بها الوجود ككل، فالكون مدرسة لتهذيب النفس بالإشارة إلى دلائل القدرة ومعاني الجمال، إذ النظرة الفاحصة المتدبرة في هذا الكون الفسيح كفيلة بتغذية مشاعرنا بمعاني وصور الجمال المتلاحقة، بما يفيد أن الإسلام لا يعادي الجمال بل إنه يتجاوز ذلك إلى تحديد ضوابط التمتع بالجمال، بإشاعة روح المسؤولية في فعل التمتع، المفروض فيه عدم تجاوز الفطرة السليمة، التي لا ترى تحقق الحياة البشرية المتوازنة إلا إذا تناسقت وترابطت مع الكون ففوضى الإنسان ليست بجمال، بل الجمال في نظام حياته الذي يتسق مع النظام السائد في الكون ككل قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝﴾[3]، كما أن تنصله عن واجباته ليست بجمال بل الجمال هو في

---

1) هود: 7.

2) الموقع الإلكتروني: www.razme.net يوم: 2011/01/02م.

3) الملك: 3.

تناسقه مع شركائه في الوجود من موجودات ومخلوقات نباتية وحيوانية وحتى الجمادات منها فهي تؤدي ما أنيط بها في هذا الكون دونما خلل ولا تقاعس: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[1].

إن فحوى هذه الآية يشير إلى مضمون معنى كلمة البيئة، على الرغم من أنه لم يرد ذكرها في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة، فإذا ما اعتبرنا أن مفهوم البيئة هو الأرض وما تضمه من مكونات حية وغير حية متمثلة في مظاهر سطح الأرض من جبال وهضاب وسهول ووديان ونباتات وحيوانات وما يحيط بالأرض من غلاف غازي يضم الكثير من العناصر الأساسية لتوفر الحياة على سطح الأرض، فبالنظر إلى كل هذه المكونات نجد أن القرآن الكريم قد تناول ذكر البيئة ضمن مفهوم الأرض ومن عليها وما حولها في أكثر من 199 آية ضمن سور مختلفة كلها تهدف إلى تقديم تربية بيئية بمعناها الشامل والمتكامل وربط الإنسان بالسلوك البيئي الإيجابي برباط وثيق، يحقق الحياة الآمنة المطمئنة في الدنيا والسعادة في الآخرة[2]، مؤكدا خلالها على مسؤوليات الخلافة مع تحديد دور وواجب الإنسان تجاه بيئته التي تقتضي منه تفكيك مدلول الخلافة إلى لوازمه الفاعلة، وأهمها أن الإنسان الخليفة هو وصي على بيئته لا مالك لها، وهذا يعني أنه مستخلف على إدارتها واستثمارها وإعمارها، وفق ما يأمر به مالك هذه البيئة وخالقها صيانة للأمانة وحفاظا عليها من كل إفساد كتصرف الأمين فيما لديه من أمانة؛ إذ الكون كله أمانة اختبار وابتلاء، يتوخى خلالها الإنسان دفع المضار ودرء

---

1) البقرة: 21-22.

2) عبد الباري محمد داود: دراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية، (ط1)، دار الآفاق العربية: القاهرة- مصر، 1999م، ص64-65. وانظر: الموقع الإلكتروني: www.Islam.net يوم: 2011/01/02م.

المفاسد وفق القاعدة الفقهية "لا ضرر ولا ضرار" فأي صورة من صور الضرر سواء للنفس أو للغير منهي عنه، وهذا الغير طبعا يستغرق مجال البيئة أيضا الذي حددت له العقيدة الإسلامية إجراءات أخلاقية عملية للحفاظ عليه وهي:

1- ذكر الله عز وجل أنه جعل لنا الأرض ذلولا نستغل مواردها ونعمها؛ من حيث أنه تعالى أمرنا بالسعي في مناكبها والتنقيب عن أرزاقنا بها ثم ربط هذا السعي والتسخير بمبدأ الجزاء والعقاب كضابط أخلاقي ينظم سلوكاتنا البيئية ويغرس فينا قيمة الحفاظ على الموارد الأرضية؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1]، وهذا يعني أن العقيدة الإسلامية تقيم رابطا أخلاقيا ومسؤولا بين سعي الإنسان في الأرض وتسخير مواردها له، وبين ضرورة حرصه على صيانة بيئته ومصدر موارده، ذلك أن كل علاقة يقيمها الإنسان مع بيئته تدخل في صميم فعل الاستخلاف؛ والتعبد والعمل مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾﴾[2].

والعمل في الإسلام بمعناه الشامل والحقيقي يمثل التعبد بالشعائر الدينية كما يشمل أيضا جميع أنشطة الإنسان في حياته، لأن العبادة فعل اختياري يصدر عن إرادة ونية يراد بها التقرب إلى الله عز وجل وهي نوعان علم وعمل[3] والعمل يشمل حتى الأنشطة الخاصة بالفرد داخل أسرته فضلا عن أموره الاجتماعية والمالية والسياسية والبيئية...

---

1) الملك: 15.

2) الكهف: 07.

3) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: مرجع سابق، ص 25.

ومنه فإن الإصلاح في البيئة من العمل الصالح الذي ورد الأمر به في غير ما آية من الذكر الحكيم .ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[1]. فالآية تفيد وجوب التناصح بين جنس البشر ليمنعوا بعضهم من الإفساد في البيئة الأرضية، المرهونة بسلوكاتهم الخاطئة وإخلالهم بواجباتهم تجاه ما استؤمنوا عليه لذا حملهم عز وجل مسؤولية الفساد بأرضه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[2].

والإفساد في الأرض يشمل الإفساد المعنوي كمعصية الله عز وجل ومخالفة أوامره، والكفر بنعمه والاعتداء على حرماته بإشاعة الفواحش وترويج الرذائل كما يشمل أيضا الإفساد المادي بتخريب العامر وإماتة الحي وتلويث الطاهر، وتبديد الطاقات واستنزاف الموارد وتعطيل المنافع.

2- لقد أرست العقيدة الإسلامية علاقة الإنسان بالبيئة على دعائم الود والانسجام لذا نجد القرآن الكريم حريصا دوما، على أن يظل الإنسان مشدودا إلى الكون برباطات وثيقة تتجلى فيما كان من قبيل العبادات والأحكام؛ فالصلاة ومواقيتها يرتبط الإنسان في أدائها بالمظاهر الفلكية من طلوع الشمس وغروبها وكذا الصيام وأيامه ولياليه من إفطار وإمساك بالإضافة إلى الطهارة وأحكام الاحتياج إلى المياه والأتربة، كل هذا يجلي لنا مدى ارتباط واتساق الإنسان مع كونه ضمن علاقة متبادلة، تشهد بما يفيد التعاطف بين العالم والإنسان على حد تعبير ابن سينا[3]، إذ يذهب هذا الأخير إلى أن علاقة

---

1) البقرة: 251.

2) آل عمران: 182.

3) هو الرئيس الحسن بن عبد الله بن سينا الفيلسوف، ولد ببخارى سنة (370هـ) وتوفي بطريق همدان سنة (428هـ). خير الدين الزركلي: الأعلام، (ط7)، دار العلم: بيروت- لبنان، 1986م، (241/2).

الانسجام القائمة بين الإنسان والكون تزيد من قوتها الطاعات والأعمال الخيرة لأن إرادة الإنسان لا تعمل على إفساد نظام الكون بل هي دوما في انسجام مع قوانينه[1] وبقية الكائنات الحية التي تشترك في بعض خصائصها مع الإنسان:﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2].

أما غير الأحياء فهي وإن كانت غير مستغرقة لعنصر الحياة إلا أنها تشترك مع الإنسان في الطاعة والعبودية[3]: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾[4].

فكل هذه الجمادات عابدة ساجدة تشترك في العبودية لله مع الإنسان، هذا فضلا عن كونها من النعم المسخرة له: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾[5].

---

1) سيد حسين نصر: مقدمة في العقائد الكونية الإسلامية، (ط1)، دار الحوار: سوريا، 1991م، ص 187.

2) الأنعام: 38.

3) مقدمة في العقائد الكونية الإسلامية: مرجع سابق، ص187، ودراسات فلسفية وإسلامية في الآيات الكونية: مرجع سابق، ص 61.

4) الحج: 18.

5) لقمان: 20.

فإذا كانت كلها نعما مسخرة له، فإن حق النعمة هو الشكر وإنما يكون بوجوب المحافظة على الموارد الطبيعية وتظهر صور الوجوب هذه في منهيات الشرع عن استتراف الموارد الطبيعية وتلويثها، لأنها خلقت ظاهرة لا خبث فيها، وإنما مأتى التلوث والإخلال من صنع الإنسان، لذا نجد الإسلام ينهى مثلا عن طرح الفضلات في الأماكن الحيوية كموارد المياه وأماكن الظل، فعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل»[1].

وإنما ورد النهي لما فيه من إهدار للثروات الأرضية والبحرية التي من الله عز وجل بها على الإنسان لينتفع بطيباتها ويتزين بحليها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾[2].

فالآية الكريمة تقرن الجانب النفعي باللفتة الجمالية لترقى بالذوق الإنساني وتفعل سلوكات المسؤولية اتجاه النعم وهو الشكر الذي ينافي مظاهر التلوث، بسبب إلقاء القمامات المترلية في جنبات الشوارع وكسبيل للتخلص منها يعمد الإنسان لحل المشكلة بمشكلة أخرى وهي إلقاء تلك المخلفات في عرض البحر خلسة وعلانية حيث عمدت الولايات المتحدة في سنوات الثمانينات إلى إلقاء نحو 310 طن من القمامة المترلية في عرض المحيط هذا فضلا عن المخلفات الصناعية الكيمائية التي يتم تصريفها في البحر مؤدية إلى تلويث بالأحماض والمركبات الهيدروكربونية، بالإضافة إلى دور

---

1) سنن أبي داود، (دط)، مكتبة المعارف: الرياض- السعودية، (دت)، مج1: كتاب الطهارة، باب: المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، حديث رقم 25، حديث حسن.

2) النحل: 14.

المفاعلات النووية في التلوث الحراري للمسطحات وذلك حينما يتم تصريف المياه المستعملة في تبريد تلك المفاعلات، مما يؤدي إلى إلحاق الضرر الجسيم بالأحياء المائية والدورات الحيوية والفيزيائية التي خلقها الله بقدر معلوم[1].

3- إن نظرة الإسلام لعلاقة الإنسان ببيئته وكونه، تقوم على دعائم فلسفة مقاصد الشريعة ذلك أن مقصودها حفظ دينهم وأنفسهم ونسلهم وعقولهم وأموالهم وهي ذاتها الكليات الخمس:

1- البيئة وحظ الدين: لا شك أن الجناية على البيئة بإعاثة الفساد فيها، والتلوث بها يتنافى مع مضامين الخلافة والأمانة التي كلف بها الإنسان، ذلك أنه الأمين على موارد الأرض ونعمها دون إخلال بتوازنها أو ذهاب لأصل الإحسان لها، فهو مستخلف فيها لا مالك لها فحري به أن يتصرف في ملك غيره بمنطق الأمانة، ويترتب عن صيانتها أو إهانتها من جزاء أو عقاب، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾[2]، وأول لوازم فعل الاستخلاف ومقتضياته الأساسية هو الإعراض عن الإفساد: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾[3]، مع العلم أنّ معالم الصلاح في السلوك الإنساني بهذه الأرض لم تترك دون بيان، لأهميتها البالغة في تمكين الإنسان من المواءمة بين المقتضيات الحضارية والمصلحة العامة لذا وبتصفح آيات الذكر

---

1) يوسف القرضاوي: رعاية البيئة في الإسلام، (ط1)، (د ن): القاهرة-مصر ، 2001م، ص150، 160. وانظر: فؤاد عبد اللطيف السرطاوي: البيئة والبعد الإسلامي، (ط1)، دار المسيرة: عمان الأردن، 1991م، ص 49.

2) الأعراف: 129.

3) الأعراف: 56.

الحكيم نستطيع تحديد سبعة مواضع لورود لفظ الأرض مضافة إلى البشر على حين ورد اللفظ ذاته مقرونا بالنهي عن الفساد أو البغي بها مع التنديد بالمفسدين حوالي 16 مرة، وورد في تحديد مهمة الإنسان باعتباره خليفة في الأرض وإبراز تبعات هذه الخلافة في نحو 10 مواضع، منها ما جاء فيه لفظ الأمر صريحا ومنها ما ورد بمقتضى السياق، كما أنه لم يرد ذكر الأرض في القرآن الكريم متصلا بلفظ التملك مما يدل على الملكية المنسوبة إلى البشر إلا ما كان ادعاء[1].

لكن القول بعدم ملكية الإنسان للأرض وما عليها لا يتعارض مطلقا مع مساعيه في إعمارها سواء ما تعلق بتشييد المباني ضمن الأطر الجمالية والصحية أو ما تعلق منها بزراعة الأرض وحيازة مردوداتها وامتلاكها، بل إننا لنجد في مأمورات النبي عليه الصلاة والسلام ومنهياته، مصطلح إحياء الموات وإحياء الأرض البور، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام حث على إشاعة الحياة في كل قطع الأرض بقوله: «من أحيا أرضا ميتا فهي له وليس لعرق ظالم حق»[2].

إن الحديث ينم عن فهم عميق منه عليه السلام لخوالج النفس البشرية وتحديد الرغبة الفطرية في التملك، فجعل منها دافعا للحفاظ على البيئة بتفعيل السلوكات الإيمانية الكفيلة بزيادة الثروات وهذا عين الإصلاح الذي قصدته الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[3].

---

1) البيئة والبعد الإسلامي: مرجع سابق، ص 48-49.

2) سنن الترمذي، ت أحمد محمد شاكر، (دط)، دار إحياء التراث: بيروت- لبنان، (دت)، (662/3)، باب: ما ذكر في إحياء الأرض الموات، وهو حديث حسن غريب وصححه الألباني.

3) الأنبياء: 105.

2- البيئة وحفظ النفس: حرص الإسلام أشد الحرص على صيانة النفس وحرمتها حتى إنه جعل قتل النفس الواحدة بغير حق يعادل قتل جميع الناس مصداقا لقوله تعالى: ﴿...أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا...﴾[1]، ولا شك أن إفساد البيئة وتلويثها يعد جناية تهدد صحة وحياة البشر اللصيقة بصور التلوث المحيط بهم بفعل أيديهم، تقاعسا عن واجب النظافة في الإسلام، كفريضة إيمانية وسلوكية يقتضيها واجب التدين أولا، ومستلزمات التحضر ثانيا وهما الدعامتان المتلازمتان في النظام المعرفي والسلوكي الإسلامي، ولذا نجد مؤلفات المسلمين تبدأ بباب الطهارة إذ لا صلاة بدون طهارة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾[2].

ومن مظاهر التلوث اللصيقة بمعيشة الإنسان وعلاقاته الاجتماعية، ما يسمى بالتلوث الضوضائي الذي ينجم عن الأصوات الصاخبة ولذا نجد القرآن الكريم يربط بين الصوت المرتفع بلا حاجة وبين صوت الحمار لتصبح لازمة شرطية تبعث في النفس الترفع عن محاكاة الأحمرة بالذوق العام إلى مصاف السلوكات المتحضرة[3] يقول تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[4].

3- البيئة وحفظ النفس: إن ما يقترفه الجيل الحاضر من إفساد في الموارد الطبيعية سواء ما تعلق بالغلاف المائي أو النباتي يعد تهديدا صريحا للأجيال القادمة بكل ما تحمله

---

1) المائدة: 32.

2) المائدة: 06.

3) دراسات نفسية حديثة وعاصرة في البيئة والصناعة والمهن والأعمال: مرجع سابق، (30/1)؛ والموقع الإلكتروني: netwww.razme .

4) لقمان: 19.

من أسباب الهلاك، إذ كل استتراف للموارد المدخرة التي هي من حقهم إنما تحملهم إرثا من التلوث المستقبلي لا قبل لهم به فضلا عن كونه من صنع أيديهم، فأي حمق هذا أكثر من أن يمعن الإنسان في إيذاء نسله الذي هو أمانة ونعمة من المولى عز وجل، إذا فالمفروض أن ينمي لذلك الجيل القادم تلك الموارد ويدفعها له ليواصل فعل الاستخلاف فيها.

4- البيئة وحفظ العقل: كثيرا ما تختم آيات الذكر الحكيم بآيات تدعو إلى فعل التعقل والتدبر كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾[1]، وهذا باعتبار أن العقل نعمة منه تعالى ينبغي استغلالها على الوجه الأمثل، في كل ما يحيط بالإنسان بدءا بسلوكاته حتى يتم الوصول إلى السوي الموازن بين المصالح والمفاسد، ولن يتأتى هذا ما لم تتم المحافظة على الكائن البشري بجسده كما بعقله ضمن ظروف بيئية سليمة تتنافى مع التلوث الهوائي الذي يعد أكبر أخطار التلوث في الوقت الحاضر لما يحمله من ملوثات الاحتراق والإشعاع مثل إشعاع اليورانيوم المخصب المستعمل في الحروب والذي يستهدف الخلايا العصبية تدميرا وتشويها[2].

ومن الواضح أن كل هذه السلوكات البشرية تستوجب اللعنة وتنفي صفتي العلم والفهم عن الجنس البشري وهما من أهم مقومات الإنسانية التي يعتز ويتميز بها الإنسان عن غيره من المخلوقات: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝﴾[3].

---

1) الأنعام: 151، وانظر أيضا: الأعراف: 130، 169.

2) رعاية البيئة في الإسلام : مرجع سابق، ص 77، 160.

3) الإسراء: 70.

5-البيئة وحفظ المال: قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝﴾[1]؛ بالنظر إلى فحوى الآية الكريمة نجد بها حرصا شديدا على صيانة الأموال من كل سفه، لكن لا ينبغي أن ينصرف مفهوم المال إلى المعنى الكلاسيكي من نقود وممتلكات خاصة فقط ذلك أن البيئة بكل أنواعها من أرضية وفلكية وصناعية مهيئة بكل ما فيها لمصلحة الإنسان: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۝﴾[2].وهذا يعني أنها ثروات وأموال مجمعة في أيدي البشر ذلك أن المال هو كل ما يتموله الإنسان ويحرص على كسبه، لذا كانت الأرض مال والأنعام مال، ومسكنه وطرقاته وشوارعه أيضا مال ينبغي المحافظة عليه من سفه الاستتراف والتلويث.

من كل ما تقدم يتضح أن العقيدة الإسلامية حرصت على متانة العلاقة القائمة بين الإنسان والبيئة ضمن جماليات سلوكية وتوعية بيئية ترقى بالذوق والحس البشري إلى مصاف المسؤولية الأخلاقية والدينية ضمن أطر ومضامين الخلافة لتفعيل فعل الإعمار والإصلاح.

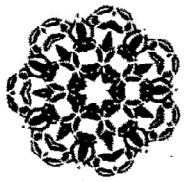

1) النساء: 05.

2) الحجر: 20.